إسهامات عبد القاهر الجرجاني وغيره من البلاغيين في توضيح فكرة النظم

شهيدة هانم بنت محمد سوهاني ومحمد شهريزال بن نصير، قسم اللغة العربية، كلية اللغات والاتصالات،
جامعة السلطان زين العابدين – ترنجانو دار الإيمان

ملخص

تتناول هذه المقالة إسهامات عبد القاهر الجرجاني وغيره من البلاغيين قبله وبعده في توضيح فكرة النظم. وتتحدّث المقالة عن مراحل تطوّر دراسة فكرة النظم عند بعض البلاغيين حتى اكتشفتْ إسهاماتهم في هذا المجال. تبدأ المقالة بدراسة الخطابي الذي لفّت أنظار العلماء حينما ذكر كلمة النظم في تقسيمه الكلام إلى ثلاثة أسس. ثم تدرس الباقلاني الذي ركّز على النظم القرآني وجعله وجها من وجوه الإعجاز في مقارنته بين النظم القرآني ونتوظم كلام العرب. وكان أسلوبه يشبه أسلوب أهل الكلام في تقديم الحجج. وأما عبد القاهر الجرجاني فاكتملت فكرة النظم عنده، وجمع بين منطق أهل الكلام والذوق الأدبي المرهف في وضع الفكرة. ثم توضح المقالة ما قام به الزمخشري – الذي يتميّز بأسلوبه الاعتزالي– في تطبيق هذه الفكرة على جميع الآيات القرآنية.

مقدمة

إنّ فكرة النظم تعطي أثراً كبيراً في دراسة الإعجاز البياني للقرآن الكريم وتشكل الوجه الجديد للدراسة البلاغية بعد عبد القاهر الجرجاني خاصةً. وكان عبد القاهر

قد قضى أكثر وقت في حياته للدراسة عن هذه القضية، وأصبحت هذه الفكرة واضحة كاملة بعد دراسته الطويلة العميقة عن هذه الفكرة.

وحين ندرس مراحل تطور فكرة النظم، نعلم أن عبد القاهر الجرجاني ليس هو أول من بدأ الدراسة في هذا الموضوع وإنما هناك من سبقه من البلاغيين الذين درسوه قبله، مثل الخطابي والباقلاني والقاضي عبد الجبار والرماني وغيرهم من البلاغيين. وكانت من دراساتهم عن النظم يلتهمها عبد القاهر حتى وضحت دراسته واكتمل مفهوم هذه الفكرة على يده. ثم جاء الزمخشري مِن البلاغيين ليطبق هذه الفكرة في تفسير آيات القرآن الكريم في كتابه: "الكشّاف". وهذا التفسير له قيمة كبيرة عند المفسّرين حيث ميّزه بتطبيق فني وكشف عن الأسرار البلاغية البيانية في آيات القرآن الكريم، ويُعرف بالتفسير البلاغي.

التعريف بفكرة النظم لغةً واصطلاحاً

قال صاحب اللسان: "النَّظْمُ: التأْليفُ، نَظَمَه يَنْظِمُه نَظْماً ونِظاماً ونَظَّمه فانْتَظَم وتَنَظَّم. ونظَمْتُ اللؤْلؤَ أَي جمعته في السِّلْك. وكلُّ شيء قَرَنْتَه بآخر أَو ضَمَمْتَ بعضَه إِلى بعض، فقد نَظَمْته. والنظام: ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره."[1] وجاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي: "النَّظْمُ : التأليفُ، وضَمُّ شيء إلى شيءٍ آخَرَ. "[2]

---

[1] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، د ت، **لسان العرب**، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، جـ ١٤، ص ١٩٦.

[2] آبادي، الفيروز، ١٩٩٣، **القاموس المحيط**، د ط، مؤسسة الرسالة، جـ ٤، ص ١٨٧٢.

ومن هنا، إذا حسبنا أن ضم الكلمات بعضها إلى بعض يسمى من الناحية اللغوية نظما لم نبتعد كثيرا. فالنظم إذن يطلق على معنى التأليف والجمع والضم والاتساق في لغة العرب، وعندئذ يكون المعنى اللغوي المشترك وهو: "ضم الأشياء إلى بعضها، مع ترتيبها، وتنسيقها، وتهذيبها، كما تضم حبات اللؤلؤ إلى بعض في سلك ونحوه".[٣] ويتضح من هنا أن للنظم معانٍ ذكرها أهل اللغة منها: الضم، والتأليف، والجمع، والترتيب، والتنسيق، والتهذيب. وكلها لا تخرج عن فكرة النظم بصورتها العامة التي أشار إليها البلاغيون.

وأما نظم الكلام في اصطلاح البلاغيين، فهو "تنسيق دلالة الألفاظ وتلاقي معانيها بما تقوم عليه من معاني النحو المتخيرة والموضوعة في أماكنها على الوجه الذي يقتضيه العقل".[٤]

وجاء عبد القاهر الجرجاني ووضع المفهوم للنظم مفهوماً واسعاً حيث شرح الخصائص والشروط للنظم البديع. إنّ مفهوم النظم عنده تدور حول العلاقة بين الألفاظ والمعاني داخل إطار العبارات أو فكرة إدراك العلاقات داخل النص، وسمّى هذه العلاقات (النظم).[٥] وأشار عبد القاهر الجرجاني إليه في كتابه وربطه بالنحو. فالنظم عنده هو أن توخّي معاني النحو التي يدور عليها تعلق الكلام بعضه ببعض، وليس معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق، وإنما النظم

---

[٣] أحمد حسين، نصر الدين بن إبراهيم، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، **وجوه الإعجاز في الخطاب الأسلوبي والمعرفي للقرآن الكريم**، ط ١، مركز البحوث بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ص ٧٥.

[٤] عرفة، عبد العزيز عبد المعطي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، **قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية**، ط ١، عالم الكتب-بيروت، ص ٧.

[٥] الجرجاني، عبد القاهر، ٢٠٠٢م، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، د.ط، المكتبة العصرية-بيروت، ص ٥٧.

عنده هو ترتيب المعاني في النفس أولاً، ثمّ تأتي الألفاظ لتستوعب هذه المعاني. والنظم هذا لا بدّ أن يخضع لقواعد النحو وأصوله.[٦]

أولا: إسهامات عبد القاهر الجرجاني (المتوفى ٤٧١هـ) في توضيح فكرة النظم

يعتبر عبد القاهر الجرجاني من أبرز الشخصيات التي شرحتْ فكرة النظم حيث استطاع أن يفسّر هذه الفكرة تفسيراً واضحاً شاملا قائما على أسس علمية قويمة مع التركيز إلى الجانب النظري بحيث لا يختل الجانب التطبيقي.

وهو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ. يقال إنّه فارسي الأصل، جرجاني الدار، عالم بالنحو والبلاغة. أخذ النحو بجرجان عن الشيخ أبي الحسين محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الوارث الفارسي. ولعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة وفي مسلك الدراسات القرآنية، إذ استطاع أن يضع هذه الفكرة في مكانة مهمّة.

وإن الناظر في كتب عبد القاهر يرى بأنّه يريد أن يثبت بأنّ الإعجاز القرآني يرجع إلى نظمه وتأليفه لا إلى ألفاظه ومعانيه. فهو الوجه الوحيد عنده الذي من جهته كان الإعجاز في القرآن الكريم. وقد كرّر فكرته هذه أكثر من مرة في كتابه "دلائل الإعجاز" لكي تتّضح ماهية النظم وخصائصه وكل ما يتعلق به. فقال عبد القاهر: "أن الناظم إذا أراد أن ينظّم كلاماً في أيّ غرض يبدأ فيرتّب المعاني في نفسه أولاً، ويبذل جهداً في ترتيبه، ثم يتّبع على ترتيبها الألفاظ. فإذا

[٦] المرجع السابق، ص ١٠٢.

وجب للمعنى أن يكون أوّلاً في النفس، وجب للّفظ الدال عليه أن يكون مثله أوّلاً في النطق". إنّه يفرّق بين نظم الحروف ونظم الكلمات، فيقرر أن نظم الحروف إنما يكون بحسب تواليها في النطق، وأمّا نظم الكلمات إنما يكون بترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس.

ومن هنا، يُفهم أنّ فكرة النظم عنده تدور حول العلاقة بين الألفاظ والمعاني داخل إطار العبارات أو فكرة إدراك العلاقات داخل النص، وسمّى هذه العلاقات (النظم) كما سبق. فاستهل كتابه (الدلائل): "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض. والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف. وللتعلق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام – تعلق اسم باسم، تعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما".[٧] ويقرّر أنّ الفصاحة والبيان والبلاغة تردّ جميعا إلى خصائص في الكلام وراء ألفاظه ومعانيه، وهي خصائص تعود إلى النظم وترتيب الكلمات على حسب ترتيب المعاني الإضافية في النفس. ويقرّر أنّ المزية للكلام ليست بمجرد اللفظ أو مجرد المعنى، إنما تقع في نظمه باعتبار ملائمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها. ويجعل عبد القاهر كذلك ذروة المزية والبلاغة، وهي الإعجاز القرآني في النظم وحده، لا في شيء آخر.

ويؤكّد مرة بعد مرة أنّ النظم لا يكون بوضع كلمات مجردة دون ارتباط كلّ منها بالأخرى حسبما يقتضيه النحو. والنظم عنده هو أن توخّي معاني النحو التي يدور عليها تعلق الكلام بعضه ببعض،

---

[٧] الجرجاني، عبد القاهر، **دلائل الإعجاز**، ص ٥٧.

وفسّر أن النظم توخي معاني النحو بين الكلم، يعني أن ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بها ألفاظاً على هذه الصورة التي روعي فيها معاني النحو من حيث التقديم والتأخير، ووضع الفاعل موضعه والحال في موضعه بطريقة ارتضاها السابك المؤلف، ليجعل من كلامه بليغا يخرج في أحسن التأليف وفي أحسن نظم التأليف، هو المقصود بالنظم. وفي قوله: "واعلم أنّ ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها".[٨] ومن قوله أيضا: "أنّه لا معنى للنظم غير توخّي معاني النحو فيما بين الكلم".[٩]

فالنحو عنده لا يقتصر أمره على معرفة الصحة والخطأ في العبارة وإنما يتجاوز ذلك إلى مواطن الجمال، والتفرقة بين الأساليب المتفاوتة في الجودة والقبح. ومعاني النحو عنده لا تتّضح في إعراب الكلمات وبنائها، ولا في تفسير الألفاظ ومعانيها، فتطلق على هذه الكلمة أنّها مبتدأ وأنّها خبر أو أنّ هذه فاعل وتلك مفعول، بل باتحاد أجزاء الكلام ودخول بعضها في بعض، وارتباط الثاني بالأول.

ثم يعرض بعض الأمثلة في الخبر: (زيد منطلق) و (زيد ينطلق) و (ينطلق زيد) و (منطلق زيد) و (زيد المنطلق) و (المنطلق زيد) و (زيد هو المنطلق) و (زيد هو منطلق).[١٠] كل هذه الجمل والتراكيب تحمل المعاني المختلفة، وفيها الأسرار البلاغية عندما يخاطب الكلام على مقتضى الحال. وكذلك في كلّ

---

[٨] انظر المرجع السابق، ص ١٢٧.

[٩] المرجع السابق، ص ٣٥٧.

[١٠] المرجع نفسه.

الحروف توضع والحركات تشكل تحمل المعاني البلاغية المختلفة. ويتصرّف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيضع كلاًّ من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

ومن الملاحظ، أنّ نظم الكلام عنده ليس الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق، كنظم الكلم الذي تقتفي فيه آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، بل يجب أن تنساق دلالتها وتتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل، حتى يعلق ببعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، فإذا فعلت هذا كلّه لا شك تكون قد استكملت فكرة النظم من وجهة نظره.[١١] والإعجاز عنده لا يكون في الكلمات المفردة، ولا في المعاني، ولكن يقع في النظم، الذي يجمع بينهما وفيه ميزات الكلمة مع نسقها الصحيح حسبما يقتضيه علم النحو، وهذا النسق الذي يوجد الصلة القوية بين العبارة ومعانيها.

ذهب عبد القاهر إلى أنّ اللفظة المفردة من حيث هي لفظة لا وزن لها في الفصاحة أو في البيان أو في البلاغة، حيث فصاحة الألفاظ وبلاغتها لا تعود إلى الألفاظ بشهادة الصفات التي توصف بها، وإنما تعود إلى صورتها ومَعرِضها الذي تتجلّى فيه، وبعبارة أخرى ترجع إلى نظمها وما يطوي فيه من خصائص.

فالكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يفيد بها الكلام غرضاً من أغراضه في الأخبار والأمر والنهي والاستخبار والتعجب، وتؤدّي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها

---

[١١] المرجع السابق، ص ١٠٢.

إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة إلى لفظة، وليس بين اللفظتين تفضل في الدلالة حتى تكون إحداهما أدل على معناها الذي وضعت له من الأخرى.[١٢]

فالتمس ذلك في لفظ (الأخدع) في قول الصمة بن عبد الله القشيري، في بيت الحماسة (من الطويل):

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وفي بيت البحتري (من الطويل):

وإني وإن بلّغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي

إنّ هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن. ثم يأتي نفس اللفظ في بيت أبي تمام (من البسيط):

يا دهر قوم من أخدعيك فقط أضججت هذا الأنام من خرقك

هذا اللفظ (أخدعيك) من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والإيناس والبهجة.[١٣] ومن أعجب، إنّ هذه اللفظة الواحدة مقبولة حسنة في موضع، وضعيفة مستكرهة في موضع آخر.

---

[١٢] طبانة، أحمد بدوي، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، **البيان العربي: دراسة في تطوّر الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى**، ط ٤، مكتبة الأنجلو المصرية–القاهرة، ص ٢٢٥.

[١٣] الجرجاني، عبد القاهر، **دلائل الإعجاز**، ص ٩٩-١٠٠.

هذا الشاهد يدلّ على الكلمة المفردة لا وزن لها ولا فضل لها قبل دخولها في التأليف.

ومن الجدير بالذكر، إنّ هذه الفكرة بما اشتملت عليها التطبيقات الواسعة، والشروح الواضحة، والملاحظات الجديدة مع الأمثلة القوية من النصوص القرآنية والأشعار العربية، إذ لم يعرضها أحد قبله هذا العرض المتميز الممتاز. ومن ذلك أثنى عليه أكثر البلاغيين، وقالوا بأنّه مبتكر لهذه الفكرة.

إذا كان القاضي عبد الجبار أوّل من حدّد فكرة النظم، وكشف عن معالمها، وأبان أنّها ضم الكلام بعضه إلى بعض على طريقة مخصوصة ومنهج معيّن، فقام عبد القاهر بتفسير هذه الفكرة تفسيراً علميا، قائما على أسس قوية من الأدلة والبراهين. ثم تجاوزها إلى ما وراءها من المعاني الثانية، وسماها معنى المعنى أي لا بد أن تعقل في النفس، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى المعنى الآخر. فهذا المعنى يحتاج إلى الواسطة ولم يأتي مباشرا في الذهن.[١٤]

ونوّه عبد القاهر طويلاً بنظم الكلام وأنّ فصاحته وبلاغته وروعته إنما ترد إلى هذه المعاني الإضافية التي يجلوها، وعرض لبعض النصوص القرآنية وغيرها من كلام العرب مبيّنا فيها من دقّة التعبير وجمالها. وعقد بعد ذلك فصولا صور فيها نظريته في المعاني الثانية أو الإضافية، وبدأ بباب التقديم والتأخير لأجزاء الكلام.[١٥]

---

[١٤] عامر، فتحى أحمد، د ت، **بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ**، د ط، نشأة المعارف بالاسكندرية–مصر.١٤٠، ص ١٤٢–١٤٣.

[١٥] ضيف، شوقي، د.ت.، **البلاغة تطور وتاريخ**، ط ٦، دار المعارف–القاهرة، ص ١٦٧.

ويلاحظ الدكتور شوقي ضيف بأنّ عبد القاهر إذ عرض الصور البيانية في كتابه الدلائل لا لغرض بحثها بحثاً مفصلا، وإنما لإثبات أنّه يطبق عليها في النظم ومعانيها الإضافية ما يطبق على العبارات الحقيقية. ونراه يعقد أبوابا في الاستعارة والمجاز والكناية وغيرها.[١٦]

وقد أفاد عبد القاهر الجرجاني كثيرا مما كتبه علماء النحو واللغة في تكوين وبناء فكرة النظم. وإنّ آراء العلماء السابقين قد اجتمعتْ بين يدي عبد القاهر الجرجاني، فأعمل فيها فكرته الدقيقة، ورأيه العميق، وإحساسه النافذ. فرفض أن يكون مدار البلاغة على اللفظ أو على المعنى، وإنما البلاغة في العلاقة بين الألفاظ في العبارات من جهة، وبينها وبين المعنى من جهة أخرى، وتسمى هذه العلاقات بالنظم.

والملاحظ، إنّ أهل المشرق تميز بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام، على حين أنّ أهل العراق والشام ومصر والأندلسيين والمغاربة تميز بالذوق الأدبي والبلاغة. واتجه فكرة عبد القاهر إلى أساس الفلسفة والمنطق حيث مزجت بالذوق الأدبي المرهف. فهذه الفكرة الفلسفية البلاغية قد برزت معالمها في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وهو متكلّم من الأشاعرة، ولكنّه يمتاز بنزوعه الأدبي وذوقه الفني.

ومن هنا، هو يليق أن يقود البلاغيين في اتجاهه لأنّه لم يقتصر على دراسة النظم القرآني فحسب وإنما كان واضع الأسس والأصول في علم البلاغة حيث امتزج الذوق المرهف والنقد العلمي. كما ذكر الدكتور بدوي طبانة اتجاه عبد القاهر الجرجاني تعجباً بفضله بأنّه لم يجد عالماً بالأدب أو ناقدا من نقدته

---

[١٦] المرجع السابق، ص ١٨٢.

استطاع أن يذلل فن الكلام لعلم النفس ويخضعه له، على مثل هذا الوجه كما استطاع عبد القاهر أن يفعله.

فعمله في الواقع جديد، فدراسته مبتكرة لا من حيث الموضوع، ولكن من حيث منهج البحث وطريقته فيه، ومع هذه المعرفة الواسعة والفهم العميق، ومحاولة تحكيمها في الأدب وتفهم النواحي الجمالية فيه. واتجاهه بذلك وجهة موضوعية تتفق مع المعرفة وتساير خطة الإقناع العقلي.[١٧]

وإن كان عبد القاهر قد سبقه الخطابي والباقلاني والقاضي عبد الجبار في إشارة وجه الإعجاز إلى نظمه وتأليفه، ولكن شرحه لمفهوم النظم كان شرحا وافياً وتوضيحه عن خصائصه كان توضيحاً شاملاً. وكان منهجه منهجاً ممتازاً، بحيث لا يسلك فيه أحد من قبله. فدراسته لإثبات الإعجاز إلى النظم كانت أشمل الدراسة وأوسعها وأعمقها من دراسة السابقين، ولم نجد من بعده أن يفعل مثل هذه الأمور.

ويُرى أنّ معظم الدارسين والباحثين قديماً وحديثاً اتفق أنّ عبد القاهر الجرجاني هو مبتكر لفكرة النظم، وإن كان بعض البلاغيين السابقين قد سبقه في إشارة إلى أنّ القرآن معجز بنظمه وحسن تأليفه، ومن دراساتهم القيّمة يلتهمها عبد القاهر في توضيح هذه الفكرة توضيحاً جميلاً. ويأتي البلاغيون بعده مثل الزمخشري وفخر الرازي والشريف الرضى وابن الزملكاني وغيرهم فيلتهموا هذه الفكرة -يكملها عبد القاهر- للتطبيق على القرآن الكريم. وفعل ذلك الزمخشري في تفسيره "الكشاف". فنذكر هنا هؤلاء الذين كانت لهم إسهامات في توضيح فكرة النظم قبل وبعد عبد القاهر الجرجاني.

---

[١٧] طبانة، أحمد بدوي، **البيان العربي**، ص ٢٥٨.

ثانيا: إسهامات أبو سليمان الخطابي (المتوفى ٣٨٨هـ) في توضيح فكرة النظم

هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب، الخطابي البستي، كان فقيها أديبا محدثا من أعلام المحدثين. له تصانيف بديعة في علم الحديث، منها: (غريب الحديث)، (معالم السنن في شرح سنن أبي داؤد) و(أعلام السنن في شرح البخاري) وكتاب الشحاح وغيرها.[١٨]

وهو أول من نبّه الأذهان إلى دراسة النظم التي كان لها خطرها في ازدهار الدراسات البلاغية فيما بعد. وشرع في البحث عن مقياس ينطبق على القدر المعجز من القرآن الكريم، ويبرز أسباب الحسن والجمال الكامنة فيه. وألّف الخطابي رسالته "بيان إعجاز القرآن"، والتي تبدو من أوّلها أنّه قد قرأ كلّ ما كتب حول إعجاز القرآن الكريم وفهمه فهما عميقا. ثم ناقش في كتابه عن وجوه الإعجاز ووضّح فيها رأيه. يقول: "قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديما وحديثا، وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعد صدروا عن ريّ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على الكيفية".[١٩]

والخطابي حينما يتكلّم عن الأسس في الكلام، فيُرى عنده الطابع الخاص عن سابقيه، حيث تفرّد بالإشارات الدقيقة إلى حقيقة الأسلوب، فهو لا يعطي

---

[١٨] ابن خلكان، أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (المتوفى سنة ٦٨١هـ)، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق الدكتور يوسف علي طويل والدكتورة مريم قاسم طويل، ط ١، دار الكتب العلمية-بيروت، ج ٢، ص ١٨٤-١٨٥.

[١٩] محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، د.ت.، **رسالة بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني**، د ط، دار المعارف-مصر.ص ١٩.

الأهمية للفظ وحده، ولا للمعنى وحده، ولكن يعطيها للنظم الذي يجمع بين الأمرين. ومن المحتمل، هذا شيء جديد الذي لا يوضّح عنه أحد من قبله.

فيرى الخطابي بأنّ هذا نظم القرآن معجز. والنظم هو وجه من وجوه إعجاز القرآن. فأركان الكلام التي يتألف منها الكلام عند الخطابي، هي كما يلي:

١- لفظ حامل للمعنى قائم به خادم له.

٢- معنى روح للفظ وبه يقوم.

٣- نظم وهو سلك ينظمهما، وخيط يربطهما.

ويبدأ الخطابي كتابه بتقسيم الكلام إلى ثلاثة أقسام : الأول، الكلام البليغ الرصين الجزل. والثاني، الفصيح القريب السهل. والثالث، الجائز الطلق الرسل. وهذه الأجناس مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة. وفي قوله: "فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه. فحازت بلاغات القرآن من كلّ قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كّل نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة".[٢٠]

ثم يصل إلى بيان السر البلاغي في النظم القرآني الذي أعجز العرب عن الإتيان بمثله أو بسورة منه، وهو عنده أمور منها:

[٢٠] المرجع السابق، ص ٢٣-٢٤.

١- إنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وألفاظها- التي هي ظروف المعاني والحوامل.

٢- إنّ إفهامهم لا تدرك جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ.

٣- إنّ معرفتهم لا تكمل لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلاف الألفاظ وارتباط بعضها ببعض.

٤- عدم قدرتهم على اختيار الأفضل عن الأحسن من وجوه النظوم.

وخلاصة من رأي الخطابي أنّ إعجاز القرآن راجع إلى جمال ألفاظه، وحسن نظمه، وسمو معانيه، وأثره في النفوس. وفي قوله: "قلت في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنّك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور".[٢١] ولا يرد الإعجاز إلى الناحية البلاغية فحسب، ولكنه يرى أن وجه الإعجاز في القرآن يتألّف من عدة أمور مجتمعة هي: ما تضمنه القرآن من الأخبار عن الكوائن في المستقبل.

وببيان الخطابي للسرّ البلاغي في الإعجاز القرآني، توصّل إلى وضع نظريته في الكلام يقول: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : أوّلا، لفظ حامل وثانياً، معنى به قائم وثالثاً، رباط لهما ناظم. فهذه الأشياء الثلاثة إذا جاءت مجموعة وعلى أحسن ما يكون، فكان الكلام المشاد يصل إلى حد

[٢١] المرجع السابق، ص ٦٤.

الإعجاز. ولذا يرى الخطابي يقول في شأن القرآن الكريم: "وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولاأعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وأمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها".[٢٢]

وأمّا غير القرآن فيرى الخطابي أن هذه الفضائل الثلاث توجد على التفرّق. فلا يمكن لمخلوق وإن بلغ الغاية في الفصاحة أن يستمرّ كلامه على مستوى واحد من التفوق طوال حياته، ولكن يوجد اختلاف في كلامه.[٢٣]

ومن هنا، نلاحظ أنّ الخطابي في رسالته هذه له طابعه الخاص عن سابقيه، حيث تفرّد بتلك الإشارات الدقيقة إلى حقيقة الأسلوب، فهو لا يعطي الأهمية للفظ وحده، ولا للمعنى وحده، ولكن يعطيها للنظم الذي يجمع بين هذين الأمرين. فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كلّ منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه. ومن هنا فهو يسبق عبد القاهر في عدم ارتضائه بطريقة اللفظين أو المعنويين.

وأشار الدكتور محمود السيد شيخون إلى رأي الخطابي في البحث عن إعجاز القرآن، فقد عرضه عرضا شيّقا، ويدلّ على ذوق جميل وطبع سليم وفهم عميق لأساليب العربية، ومعرفة تامة بطرق التعبير فيها، وقدرته من تذوّق

---

[٢٢] المرجع السابق، ص ٢٤.

[٢٣] انظر المرجع نفسه.

حلاوتها، فأثّر في نفسه تأثيرا واضحًا جلياً. فعبّر عن هذا التأثير بأجمل العبارات، وجعله وجها من وجوه الإعجاز.

ويُفهم من ملاحظة الدكتور محمود السيد شيخون أنّ هناك التقارب بين فكرة الخطابي والرماني الذي يعيش في عصر واحد، وخاصة فيما يتعلّق بوجه الإعجاز البلاغي. فكلاهما قد قسّم الكلام إلى ثلاث مراتب، ولكنهما يختلفان في أنّ الرماني جعل أعلى رتبة من رتب البلاغة للقرآن وعجز البشر عن الوصول إليها. وأما الخطابي فيرى أنّ القرآن قد أخذ من كلّ هذه الرتب الثلاث. فحصل له بذلك نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة. فكلا الرأيين متقاربين.[٢٤] ومن أجل هذا، نلاحظ أنّ الخطابي له دقّة النظر من تأمّله الدقيق حتى يرى هذه الأشكال الثلاثة من الكلام التي خاطبها القرآن إلى ثلاث مستويات من الناس.

فالخطابي بجهده، قد لفّت أنظار العلماء إلى بحث النظم بحثاً علميًا دقيقاً لأنّ من صفات بارزة في أهل حديث هي صفة الدقّة. ويفتح عيون الباحثين بعده من خلال تقسيمه للكلام إلى الأسس الثلاثة. وكانت هذه الأسس الثلاثة توجّه الطريق للدارسين أن يقوم بدراسة هذا النظم من خلال الوقوف على توضيح ماهية النظم وتوسيع البحث عنه حتى اكتشفت أسرار الإعجاز في النظم القرآني.

ومن دراسة رسالة الخطابي والوقوف على المؤلفات يتعلّق بدراسته، نلاحظ أنه يردّ الإعجاز إلى الناحية البلاغية ويرى أنّ إعجاز القرآن راجع إلى جمال ألفاظه، وحسن نظمه، وسموّ معانيه، وأثره في النفوس. هذا يدلّ على دقّة عقله وعمق فكره كمحدّث.

---

[٢٤] شيخون، محمود السيد، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، **الإعجاز في نظم القرآن**، ط ١، مكتبة الكليات الأزهريات–القاهرة، ص ٣١.

وأمّا اتجاهه اتجاه المحدّثين فكان واضحاً عند ما يتّجه إلى دراسة الإعجاز القرآني دراسة جدّيةً عامقةً، وإن لم يشرح عن النظم القرآني شرحاً وافياً واسعاً كما فعله البلاغيون بعده، ولكن كلامه عن نظوم التأليف تسهم مساهمة كبيرة ويفتح الطريق لمن أتى بعده مثل الباقلاني، وعبد القاهر الجرجاني، وغيره لتوسيع معنى النظم وتوضيحه حتى كملت هذه النظرية على يد عبد القاهر الجرجاني.

ويقال بأنّه أوّل من ثار على طريقة دراسة النظم القرآني بوجه دقيق ولكنّها ثورة تتسم بالهدوء. وأمّا من ثار ثورة عارمة على دراسة هذا النظم القرآني البديع فهو القاضي أبو محمد بن الطيب بن المحمد بن جعفر بن القاسم، المعروف بالباقلاني، بحيث يوضّح الخصائص لهذا النظم على وجه تفصيلي.

ثالثا: إسهامات أبو بكر الباقلاني (المتوفى ٤٠٣هـ) في توضيح فكرة النظم

هو القاضي أبو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشهور، المتوفي سنة ٤٠٣ هـ. كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، مؤيّداً اعتقاده وناصراً طريقته. وسكن بغداد. وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره.[٢٥] وواحدا ممن نصبوا أنفسهم للحجاج والمجادلة ورد طعنات المخالفين والمعارضين والدفاع عن عقيدة المسلمين. وأهمّ كتبه التي عالجت قضية الإعجاز القرآني كتاب "إعجاز القرآن" الذي أجمع المتأخّرون على أنّه لم يصنّف مثله.

---

[٢٥] انظر ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ٤، ص ٩٨.

يرى الدكتور عبد العزيز الحناوي بأنّه كتاب جليل في دراسات البلاغة والنقد والإعجاز، وهو ينفع في دراسة نواحي إعجاز القرآن الكريم، والكشف عن أسراره. ويرى أنّه ممتاز بجدة منهجه في البحث، وعمق تذوّق صاحبه للأدب، ودقّة فهمه لأصول البيان، وسعة إطلاعه على ثقافات الدين والعربية، كما يتميّز الكتاب بجمال أسلوبه وطلاوته، وبغلبة ثقافة المتكلّمين عليه.[٢٦]

جاء الباقلاني بفكرة واسعة في بحثه عن النظم. وعنده ملامح جديد سبق إلى بعضها، بل زاده اتساعاً، وموازنة في بعدٍ دقيقٍ. وقد اختار الباقلاني أنّ النظم طريقاً للإعجاز القرآني، كما أشار الخطابي إليه. فالقرآن عنده يتميّز عن أساليب العرب، وهو ليس سجعاً ولا شعراً، وليس خطابة، ولا جاريا مجرى الرسائل، ولكن القرآن بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى حدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه.

وفي مقدمة كتابه "إعجاز القرآن"، رفض فكرة الملحدين حينما قالوا أنّ القرآن سحر وشعر وأساطير الأولين والبديع باعتبارها أساسًا لبلاغة القرآن، وهاجم من ادّعى القرآن شعرًا وسحرًا وسجعًا، ويدافع القرآن دفاعاً قويّا. فالباقلاني لا يعتبر البديع سبيلا لإثبات الإعجاز، لأنّ المرء يمكنه أن يمهر فيه، وأن يحذقه إذا تدرّب عليه وتفرّغ له، وإن كان البديع يدل على البراعة والصنعة. وكذلك ينفي السجع نفيًا باتًا من القرآن، ويذهب أنّ لو كان سجعاً لكان غير

---

[٢٦] الحناوى، المحمدي عبد العزيز، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، **دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن**، ط١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ص ٢١٢-٢١٣.

خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقولوا: هو سجع معجز لجاز أن يقولوا : هو شعر معجز.[٢٧]

ويؤكد الباقلاني في أوّل كتابه هذا أنّ القرآن معجز، وأنّ نبوّة نبينا محمد -صلّى الله عليه وسلّم- بُنِيَتْ على هذه المعجزة. وكان إعجاز القرآن واقع في النظم والتأليف والرصف. ووضّح بأنّ النظم القرآني يخالف جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفى على مخرج الأشعار والأسجاع، وأن نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج.

ويعالج الباقلاني دراسة النظم القرآني من خلال الحديث عن ثلاثة أمور رئيسة، وهي:

١- ماهية النظم القرآني

٢- مخالفته لأي صورة من صور كلام البشر

٣- وجوه الإعجاز لهذا النظم البديع

إنّ وجوه العرب وفصحاءهم سلموا بتقدّم القرآن في الفصاحة والبلاغة، وأظهروا العجز عند معارضته ووصفوه بالحلاوة والطلاوة. كما أنّ الباقلاني لا يغفل فصاحة الكلمة، حين يردّ الإعجاز إلى النظم، فللكلمة ذاتها فصاحة خاصة، ووقع خاص، ومرونة عالية أو هامسة فيقول : "وأنت ترى الكلمة من

٢٧ الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، **إعجاز القرآن**، ط ١، دار عالم الكتب- بيروت، ص ٧٦-٨٤.

القرآن، يتمثّل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه وواسطة عقده والمنادى على نفسه بتمييزه وتخصصه برونقه وجماله واعتراضه في جنسه ومائه".[٢٨]

وفرّق الباقلاني أنّ نظم القرآن أو كلام الله اللفظي الذي هو حكاية لكلامه النفسي القديم القائم بذاته سبحانه وتعالى على حدّ قوله عن نظم الكتب الإلهية الأخرى بأنّه نظم معجز. أمّا تلك الكتب السماوية الأخرى، فإن نظمها ليس معجزا وإن كان ما تتضمنه من الأخبار عن الغيوب معجزًا.

ويؤكّد أنّ هذا القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد المعجز بنظمه وتأليفه. أمّا الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل وغيرها من الصحف فهي معجزة بما تتضمّنه من الأخبار بالغيب فقط وليست معجزة بالنظم، لأنّ الله تعالى لم يصفها بما وصف به القرآن، ولم يقع التحدّي إليها كما وقع التحدّي إلى القرآن.

وفي عصر الباقلاني، وجد الملحدين يعدلون القرآن ببعض الأشعار ويوازنون بين النظم القرآني وبين نظم كلام العرب شعراً ونثراً. فلا يرضى بذلك، فيحاول الباقلاني تقديس القرآن من كل محاولة سيّئة، فعقد المقارنات بين النظم القرآني ونظم كلام العرب لكي اتضح لهم جلال القرآن وعظمة نظمه.[٢٩] وأخذ يوضّح الباقلاني عن وجوه مخالفة نظم القرآن من نظم كلام العرب:

١) نظم القرآن خارج عن نظام كلام العرب.[٣٠]

٢) نظم القرآن معجز وخارج من العادة.[٣١]

---

[٢٨] المرجع السابق، ص ٦٠ .

[٢٩] المرجع السابق، ص ٥٣.

[٣٠] انظر المرجع نفسه.

[٣١] انظر المرجع نفسه.

٣) ليس كلام العرب مثيل لما في القرآن الكريم، خاصة في الفصاحة والبلاغة. [٣٢]

٤) نظم القرآن لا يتفاوت ولا يتباين وكلام العرب بعكسه[٣٣].

٥) نظم القرآن يخرج عن كلام الإنس والجن.[٣٤]

٦) وجد في القرآن ما في كلام العرب من فنون الخطاب.[٣٥]

٧) كان في القرآن اللفظ البارع في المعنى البارع ولو كان المعاني تتضمن الشريعة والأحكام.[٣٦]

٨) تألق التعبير القرآني إذا قرن بتعبير آخر.[٣٧]

٩) إنّ هذا الكلام من القرآن منتظم من الحروف التي ينتظم كلام العرب. [٣٨]

١٠) كلام القرآن سهل لكنّه ممتنع المطلب، عسير المتناول. [٣٩]

هذه خصائص نظم القرآن كما يراها الباقلاني. ويُرى في هذه المقارنة أنّ الباقلاني يفاضل أسلوب القرآن على غيره من أساليب العرب، مبينًا فضل القرآن على جميع أساليب الكلام. ومن هذه الموازنة، تتّضح لنا أنّ القرآن هو وحي من الله وليس من كلام البشر.

---

[٣٢] انظر المرجع نفسه.

[٣٣] المرجع السابق، ص ٥٤-٥٥.

[٣٤] انظر المرجع السابق، ص ٥٦.

[٣٥] انظر المرجع السابق، ص ٥٩.

[٣٦] انظر المرجع السابق، ص ٥٩-٦٠.

[٣٧] انظر المرجع السابق، ص ٦٠.

[٣٨] انظر المرجع السابق، ص ٦١-٦٣.

[٣٩] المرجع السابق، ص ٦٣.

وقد بناها الباقلاني على فكرة أنّ نظم القرآن خارج على المعهود من نظوم كلام العرب من ناحية تصرف أسلوبه في تناوله للمعاني والتعبير عنها مع أنّ الحروف حروفهم والألفاظ ألفاظهم والتراكيب تراكيبهم، ثم نفى فكرة أن القرآن معجز بسبب أنّه الكلام القديم أو حكاية عنه أو عبارة عنه كما نفى أن يكون وجه الإعجاز في نظم الكلام لأنّه حكاية عن الكلام القديم. ولا يغفل الباقلاني فصاحة الكلمة، حين يردّ الإعجاز إلى النظم، فللكلمة ذاتها فصاحة خاصة ووقع خاص. وهذه يتميّز نظم القرآن عن نظم كلام البشر.

هذا هو رأي الباقلاني عند دراسته في إعجاز القرآن والنظم القرآني، وقد عرضه بأسلوب جميل، فيه رقة الأديب الأريب، ودقة العالم اللبيب. فهو حين يتحدّث عن نظم القرآن يبهرنا أسلوبه ويأسرنا بيانه وتدهشنا براعته في التحليل وقدرته على إيراد الحجج والبراهين، كأنّ أمامنا أديب قد بلغ القمة في الفصاحة، وعالم متمكّن خبير.

ومن ثمّ، نرى أنّ الباقلاني في محاولته لإثبات الإعجاز للقرآن الكريم، يقوم بشرح وجه من وجوه الإعجاز القرآني. فشرحه عن إعجاز البلاغي للقرآن، وبيانه عن تفوق هذا النظم القرآني على كلام البشر، قد وجّه الطريق للدارسين للكشف عن أسرار النظم القرآني بوجه دقيق، ومنهم القاضي عبد الجبار أسدي آبادي وعبد القاهر الجرجاني. وكان توضيح الباقلاني لوجه تفوّق النظم القرآني بالنسبة للنظم العربي العادي في مقارنته المشهورة يفتح الطريق إلى هؤلاء أعلام البلاغيين لكشف أسرار الإعجاز في النظم القرآني وإبراز تفوّقه إبرازاً تامًّا.

فالباقلاني في دراسته عن النظم القرآني، قد أبدى ثلاثة أمور رئيسة وهي ماهية النظم، ومخالفته لأي صورة من صور كلام البشر، ووجوه الإعجاز للنظم

القرآني. فهذه الدراسة قد شجّعتْ عبد القاهر للبحث عن هذه الأمور الثلاثة بوجه دقيق عميق حتى وصل إلى وضع فكرة النظم وتوضيحه واضحًا شاملاً.

وعند ما نقف على الدراسات والمؤلفات تتعلّق بالباقلاني، نرى أنّ الباقلاني عند ما يذكر خصائص نظم القرآن ويقارن بين هذا النظم البديع ونظم كلام العرب، يكون الهدف من ذلك للدفاع عن القرآن الكريم من الهجوم والتشكيك، ويؤكّد بأنّه كتاب معجز بنظمه وتأليفه. ويريد الباقلاني أن يقدّس القرآن من قول الملحدين والمشكّكين، وقالوا أنّ القرآن شعر وسحر غيرها من الدعوات الباطلة. ومن أجل هذه، لا يمكن أن يسكت الباقلاني حتى ينزّه القرآن من هذه العناصر السيّئة ويبدأ المقارنة بين نظم القرآن ونظم كلام العرب. ويبدو لنا أنّ هذا شيء جديد الذي ينتبه الباقلاني ويستطيع أن يذكر ما لم يذكر أحد من قبله. ولعلّ تعصّبه بالقرآن يؤثر على طريقة معالجته كما تأثّر بطريقة أهل الكلام في إبداء الحجج والأراء.

ولما لاحظنا عمّا وراء دراسة النظم القرآني عند المتكلّمين بعد النظرات الأولى في "المجاز" لأبي عبيدة و"معاني القرآن" للفراء و"النكت في إعجاز القرآن" للرماني وغيرها لدي المتكلّمين في تسلسل الزمن بدأ بالجاحظ وانتهى بالباقلاني، حتى نصل إلى هذا الحقل من حقول المعرفة، فوجدنا أنّ المتكلّمين قد شغلوا أنفسهم طويلاً بالقرآن ودراساته، والرد على حجج المفترين الضالين.[٤٠]

ثم نلاحظ رأي الدكتور عبد الرؤوف مخلوف أنّ الباقلاني اعتنق في إعجاز القرآن فكرة المخالفة في الجنس، وأنّ القرآن جاء في جملته وهو مخالف في شكله وقالبه لسائر القوالب العربية، وكان حتما أن تسيّره هذه الفكرة في دراسة

[٤٠] عامر، فتحى أحمد، **بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ**، ص ١٦٣.

الإعجاز إلى الاهتمام بمقارنة بين النظم القرآني ونظم كلام العرب لنفي المشاكلة بين القرآن وبين كلام العرب.[٤١] والمعروف أنّ هدفه الأساسي في دراسة النظم القرآني وهو الدفاع عن القرآن من الهجوم والعناصر الباطلة.

ومن هنا، يمكن أن نقول أنّ الباقلاني في اتجاهه كمتكلّم يريد أن يثبت أنّ القرآن يختلف عن كلام العرب من حيث النظم لا من حيث اللفظ لأنّ الألفاظ يستعملها القرآن هي نفس الألفاظ يستعملها العرب. ومن هذا أصبح القرآن سهلاً ممتنعاً. فهذا أيضًا شيء جديدٌ، ونرى من رأينا المتواضع أنّ هذا صحيحٌ الذي لم يذكر أحد من قبله.

فالباقلاني في دراسته عن النظم القرآني يبدي الطريق للباحثين من بعده من خلال مقارنته بين نظم القرآن ونظم كلام البشر، وحديثه عن وجوه إعجاز القرآن، وإن لم يركّز إلى كشف الأسرار الفنّيّة والبلاغية في الآيات القرآنية كما فعل عبد القاهر الجرجاني الزمخشري من بعده. وقد بنى الباقلاني هذه الفكرة حينما عرض بأنّ نظم القرآن خارج على المعهود من نظوم كلام العرب من ناحية تصرف أسلوبه ونظمه مع أنّ الحروف حروفهم والألفاظ ألفاظهم والتراكيب تراكيبهم. وهذا يدلّ على علوّ حججه ورجحان عقله للدفاع عن القرآن.

رابعاً: إسهامات الإمام الزمخشري (المتوفى ٥٣٨هـ) في توضيح فكرة النظم

إنّ أول من طبّق هذه الفكرة (النظم) على القرآن كلّه، فهو الإمام المشهور بتفسيره "الكشّاف"، وهو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد بن عمر

[٤١] مخلوف، عبد الرؤوف، د. ت.، **الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن : دراسة تحليلية نقدية**، د ط، دار مكتبة الحياة–بيروت، ص ٤٦٠.

الخوارزمي الزمخشري. الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو اللغة والبيان. ولد بزمخشر من إقليم خوارزم الفارسي سنة ٤٦٧ هـ، حيث كان مذهب الاعتزال لا يزال مزدهراً، فكان طبيعيا أن يعتنقه. وأقبل على دراسة العلوم اللغوية والدينية، ورحل كثيرا، فأقام ببغداد مدة، وجاور بمكة طويلاً، وبها أملى تفسيره "الكشّاف". وعاد إلى وطنه، وتوفى به سنة ٥٣٨هـ.[٤٢]

كما علمنا أنّ عبد القاهر قد وقف طويلا بفكرته النظم وشغل نفسه لشرح هذه الفكرة ومثّل لها بإتيان الشواهد من الآيات القرآنية والأشعار العربية وكلام العرب لإثبات بأنّها الوجه الوحيد لإعجاز القرآن. واستطاع أن يفسّر هذه الفكرة تفسيراً واضحاً شاملاً، قائماً على أسس علمية قويمة، مع التركيز على الجانب النظري والتطبيقي. وعاش في فلك هذه الفكرة طول حياته.

وعلى كلّ حال، نرى أنّه ما زال يفتقد الجانب التطبيقي من حيث عرضه للنصوص القرآنية التي هي محل اتجاه هذه الفكرة، كما رأى بعض الباحثين في نقد كتاب عبد القاهر "دلائل الإعجاز" بحيث يعرض قليلاً من الآيات القرآنية بينما يتناول كثيراً من الأشعار العربية من كلام العرب، على حين اسم الكتاب هو "دلائل الإعجاز".

ومن هذا المنطلق، جاء الزمخشري صاحب البصيرة النافذة والذوق الصقيل والباع الطويل في النظر إلى عمق هذه الفكرة التي أسّسها عبد القاهر. فاستطاع الزمخشري أن يغطى هذا الجانب المفتقد في دراسة سابقة، وذلك بتأسيس التفسير الكامل البلاغي مركّزًا إلى كشف الأسرار واللطائف في النظم القرآني من خلال دراسته وتطبيقه لهذه الفكرة التي وضعها عبد القاهر الجرجاني.

---

[٤٢] ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، جـ ٤، ص ٣٩٨-٤٠٢.

وله مصنفات جليلة بجانب الكشّاف، خفاياه ودقائقه، كما يعينه ذوق أدبي مرهف يقيس الجمال البلاغي قياسًا دقيقًا وما يطوى فيه من كمالٍ وجمالٍ. وهو من هذه الناحية ليس له قرين سابق ولا لاحق في تاريخ التفسير، بل لقد بذّ الأوائل والأواخر حتى لنرى أهل السنة يشيدون به وبتفسيره على الرغم اعتزاله ومخالفتهم له في عقيدته الاعتزالية.

ويبدو من كلامه أنّه قد تأثر بفكرة عبد القاهر حيث أنّ وقوفه على إعجاز القرآن وأسراره ولطائفه وأبعاده ومراميه لا بد فيه من التسلح بعلمي المعاني والبيان، وسائر علوم البلاغة حتى تتّضح له هذه الأسرار القرآنية. هذا هو آثار مما كتبه عبد القاهر في كتابيه "الدلائل" و"الأسرار" عن علوم البلاغة وبخاصة المعاني والبيان. وقد عنى بهذين العلمين وكشف عن كثير من ألوانهما في النظم القرآني، وجلا أسرار ما فيها من روعة وجمال، لإبراز أسرار الإعجاز القرآني.[٤٣]

ففي قوله تعالى: [أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ].[٤٤] يقول الزمخشري: فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله، وما يأتون به مفترى، وهذا غير مفترى؟ قلت: معناه مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى.[٤٥]

وفي قوله تعالى: [وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ

---

٤٣ الحوفي، أحمد محمد، د ت، **الزمخشري**، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٢٠٢.

٤٤ سورة هود، الآية ١٣.

٤٥ الزمخشرى، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ط ٣، دار الريان للتراث-مصر، ج ٢، ص ٣٨٣.

دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ].[٤٦] ويقول: معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم.[٤٧]

كما يتّضح الإعجاز عنده في الأخبار بالغيوب، إذ أنهم لو عارضوه بشيء لتناقله الناس لا سيما والطاعنون فيه أكثف عدداً من الذابين عنه، فحين لم ينقل، علم أنّه إخبار بالغيب على ما هو به، فكان معجزة.[٤٨]

وفي قوله تعالى: [فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ].[٤٩] أي أنزل ملتبسا بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق وأخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه.[٥٠]

ويقول في الآية: [الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ].[٥١] وهو من الإعجاز لأنّه إخبار بما سيكون وقد كان.[٥٢]

ومن هذه النقطة، يتّضح لنا أنّ الزمخشري يرى أنّ إعجاز القرآن يكون في شيئين، الأول: في نظمه، والثاني: في أخباره بالغيوب. وقد نبّه هذه النزعة في "الكشّاف"، فقال: "النظم هو أمّ إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدى ومراعاته أهم ما يجب على المفسّر".[٥٣] وهو في هذه الناحية يتابع عبد القاهر بل

---

[٤٦] سورة البقرة، الآية ٢٣

[٤٧] الزمخشري، **الكشاف**، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ج ١، ص ١٢٩.

[٤٨] حسين، عبد القادر، **المختصر في تاريخ البلاغة**، ص ٤٧، والجويني، الدكتور مصطفى الصاوي، **منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه**، ص ٢١٧-٢١٨.

[٤٩] سورة هود، الآية ١٤

[٥٠] الزمخشري، **الكشاف**، دار الريان للتراث-مصر ، ج ٢، ص ٣٨٣.

[٥١] سورة الحجر، الآية ٩١

[٥٢] الزمخشري، **الكشاف**، دار الريان للتراث- مصر، ج ٢، ص ٥٨٩.

[٥٣] الزمخشري، **الكشاف**، ج ٢، ص ٢٤.

أنّه مَنْ طبّق فكرة عبد القاهر في النظم تطبيقاً عمليًّا على نطاق واسع يشمل سور القرآن جميعها.

أشار الدكتور أحمد محمد الحوفي في كتابه أنّ الزمخشري استن نهج ابن عباس والطبري وغيرهما في الاستشهاد بالشعر والاستدلال به على تفسير معاني بعض الكلمات في النظم القرآني.[٥٤] فقد روى ابن عباس –رضي الله عنه– أنّ أعربيا جاء إلى النبي –صلّى الله عليه وسلّم– فتكلّم بكلام بيّن، فقال النبي –صلّى الله عليه وسلّم–: "إنّ من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمًا". وكان ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن، فيقول: فيه كذا وكذا، أمّا سمعتم الشاعر فيقول كذا كذا. وقال عكرم –رضي الله عنه–: ما سمعت ابن عباس فسّر آية من كتاب الله عزّ وجلّ إلا نزع فيها بيتا من الشعر. وكان يقول: إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر، فإنه ديوان العرب.[٥٥]

ونقل عن بعض الباحثين في دراسة النظم القرآني بأن فسّر بعض الصحابة –رضي الله عنهم– آية من آيات القرآن الكريم بإتيان الشواهد من أشعار العرب فهو لتوضيح أنّ ألفاظ القرآن تتألّف من ألفاظ التي استخدمها العرب في كلامهم، وإنما يريدون أن يبرزوا أن ما ينفرد به القرآن عن كلام العرب هو من حيث نظمه البديع المنفرد. ويريدون أن يثبتوا أنّ إعجاز القرآن وقع في نظمه، لا في ألفاظه أو معانيه. ولهذا استشهد بالشعر لتوضيح هذه الفكرة، بجانب الكشف عن دلالات كثير من ألألفاظ في القرآن الكريم.

---

[٥٤] الحوفي، أحمد محمد، **الزمخشري**، ص ١٩٥.

[٥٥] **مقدمة شرح التبريزي للحماسة**، ج١، ص ٣.

لقد اتّضح الأمر ممّا سبق، أنّ الزمخشرى استوعب كل ما كتبه عبد القاهر في "الأسرار" و"الدلائل"، ومضى يطبّقه تطبيقاً دقيقاً على آيات الذكر الحكيم، وكأنّه لم يترك صغيرةً ولا كبيرةً من آراء عبد القاهر إلا ساق عليها الأمثلة النيرة من النظم القرآني. وقد وصل هذا التطبيق بكثير من آرائه التي تدلّ على تعمّقه وفطنته في تصوير الدلالة البلاغية، وإحاطته بخواصّ العبارات من مفرداتها وتراكيبها وما فيها من محاسن دقاق.[٥٦]

وكان الزمخشري برع في الشعر والنثر وأوتي من الفطنة، ودقة الحس، ورهافة الشعور ما أعدّه خير الإعداد لهذه المهمة، وكأنما تجمعت في صدره جميع أماني المعتزلة والأشعرية في تصويره عن بلاغة النظم القرآني. فأقبل على الدراسات البلاغية يعبّ منها وينهل، ولم يلبث أن يوجد خير مورد له كتابات عبد القاهر في "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، فدرسها حتى تمثلها تمثلا منقطع النظير، يؤمن بأن المعرفة بالبلاغة وأنماطها وإدراك أساليبها لا تكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن فقط، بل تكشف عن خفاياه ومعانيه وخبيئاتها وذخائرها المكنونة. وعلى كل هذه الشاكلة، يمضي الزمخشري في تفسير الآيات وبيان تعلق بعضها ببعض، وتعلق عباراتها وألفاظها، تعلقا يكشف في ثناياه عن جميع وجوه النظم التي تحدث عنها عبد القاهر في كتابيه هذين.

فلا شكّ، أنّ أسس التربية الفنية التي تهدف إليها عبد القاهر قد أثمرت ثمرتها عند الزمخشري. فهو منذ مطلع تفسيره، جعلها عمدة هذا التفسير البلاغي. وكان يتابع عبد القاهر في معالجة أسرار النظم القرآني، بل يطبّق هذه الفكرة المهمة على آيات القرآن كله.

---

[٥٦] ضيف، شوقي، **البلاغة تطور وتاريخ**، ص ٢٤٣.

ونرى اتجاه الزمخشري اتجاه المفسّرين في دراسة النظم القرآني من تفسيره "الكشّاف" المشهور بتفسير بلاغي في تاريخ تفاسير. وهذا التفسير كتبه الزمخشري من دراسته وإلمامه لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، ومضى يطبّقه هذه النظرية تطبيقاً دقيقاً على آيات القرآن الكريم، وكأنّه لم يترك صغيرةً ولا كبيرةً من آراء عبد القاهر إلا ساق عليها الأمثلة النيرة من النظم القرآني. وهذا التفسير البلاغي جديد الذي لم يعمل أحد من قبله في تاريخ التفاسير والمفسّرين طول الزمان. وجهده كبير الذي يشجّع الباحثين بعده أن يكشفوا أسرار المعارف الربّانية في آيات الذكر الحكيم. وكذلك جهود الخطابي والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني الذين يسهمون مساهمة كبيرة عظيمة في دراسة النظم القرآني.

خلاصة

وفي هذا الموجز، تعرض النتائج التي استنبطها الباحثان من خلال هذا البحث المتواضع:

١) كانت فكرة النظم تعطي أثراً كبيراً في دراسة الإعجاز البياني للقرآن الكريم وتشكل الوجه الجديد للدراسات البلاغية خاصةً.

٢) إنّ هذه دراسة لم تقتصر بالحروف واللفظ والجمل والتراكيب وإدراك العلاقات بين الأسباب والدلالة مع جميع عناصر النظم وتأمّل إلى صفة اللفظ وصفة المعنى ونوع التركيب وموضع التأليف وموقع الإعراب وغيرها، بل هي الدراسة تحتاج إلى التطبيق والتدبّر لآيات الذكر إلى أن اكتشفتْ الأسرار وفتحتْ الفتوحات الربّانية.

٣) مع أنّنا عرفنا معرفة جليّة أنّ عبد القاهر هو الذي اشتهر بفكرة النظم، ولكن هناك عدد من البلاغيين من قبله وبعده الذين قد أسهموا إسهامات كبيرة في توضيح مفهوم النظم وإكمال هذه الفكرة.

٤) ومن أجل هذا، كانوا هؤلاء البلاغيون أمثالهم عبد القاهر والخطابي والباقلاني والزمخشري قد أسهموا إسهامات عظيمة ومباركة في توضيح فكرة النظم. والمعروف أنّ لهذه الفكرة دوراً كبيراً في فهم معاني الآيات القرآنية وكشف أسرارها الدقيقة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

آبادي، الفيروز، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م، **القاموس المحيط**، ط ٢، مصر.

إبراهيم، محمد، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، **منهج الجرجاني في تحليل النظم وتطبيقاته في سورة الكهف: دراسة بلاغية تحليلية**، بحث تكميلي مقدم لنيل الماجستير في اللغة العربية وآدابها (الدراسات الأدبية)، كلية معارف الوحي الإسلامية والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، د.ت.، **لسان العرب**، ط ١، دار صادر-بيروت.

ابن خلدون، عبد الرحمن، د.ت.، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: الدكتور علي عبد الواحد وافي، د ط، دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة.

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: الدكتور يوسف علي طويل والدكتورة مريم قاسم طويل، ط ١، دار الكتب العلمية-بيروت.

أبو موسى، محمد محمد، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية**، ط ٢، دار التضامن بالقاهرة-مصر.

أبو علي، محمد بركات حمدي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، **معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني**، ط ١، دار الفكر-الأردن.

الأسعد، عبد الكريم محمد، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، **أحاديث في تاريخ البلاغة وفي بعض قضاياها**، ط ١، دار العلوم للطباعة والنشر-رياض.

باحاذق، عمر محمد عمر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، **شرح رسالة بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابي**، ط ١، دار المأمون للتراث-بيروت.

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، **إعجاز القرآن**، ط ١، دار عالم الكتب-بيروت.

الجرجاني، عبد القاهر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، د ط، المكتبة العصرية، بيروت.

الجرجاني، عبد القاهر، د.ت.، **أسرار البلاغة**، شرح وتعليق: الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، د ط، مكتبة الإيمان بالمنصورة-مصر.

الجويني، مصطفى الصاوي، د.ت.، **منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه**، ط ٣، دار المعارف-مصر.

الحوفي، أحمد محمد، د.ت.، **الزمخشري**، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حسين، نصر الدين بن إبراهيم أحمد، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، **وجوه الإعجاز في الخطاب الأسلوبي والمعرفي للقرآن الكريم**، ط ١، مركز البحوث للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

حسين، نصر الدين بن إبراهيم أحمد، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، **نظرية الأسلوب الأدبي عند الإمام عبد القاهر الجرجاني**، ط ١، مركز البحوث بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

حسين، نصر الدين بن إبراهيم أحمد، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، **نظرية النظم ومنهج تفسير القرآن الكريم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني**، ورقة العمل نشر في مؤتمر عالمي عن مناهج تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث الشريف في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

حسين، عبد القادر، د.ت.، **المختصر في تاريخ البلاغة**، ط ١، مكتبة جامعة الأزهر بالقاهرة-مصر.

الحناوى، المحمدي عبد العزيز، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، **دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن**، ط ١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة.

خريبة، محمد بن عبد المنعم، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، **بحث في الإعجاز القرآني**، د ط، مطبعة جامعة الأزهر-مصر

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ط ٣، دار الريان للتراث-مصر.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ط ١، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

سلطان، الدكتور منير، د.ت.، **مناهج في تحليل النظم القرآني**، د ط، منشأة المعارف بالاسكندرية-مصر.

شيخون، محمود السيد، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، **الاستعارة: نشأتها–تطورها–أثرها في الأساليب العربية**، ط ٢، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة–مصر.

شيخون، محمود السيد، **الإعجاز في نظم القرآن**، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ط ١، مكتبة الكليات الأزهريات بالقاهرة–مصر.

ضيف، شوقي، د.ت.، **البلاغة تطور وتاريخ**، ط ٦، دار المعارف–القاهرة.

طبانة، أحمد بدوي، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، **البيان العربي: دراسة في تطوّر الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى**، ط ٤، مكتبة الأنجلو المصرية–القاهرة.

عرفة، عبد العزيز عبد المعطي، ١٤٢٥هـ/١٩٨٥م، **قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية**، ط ١، عالم الكتب–بيروت.

عرفة، عبد العزيز عبد المعطي، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، **من بلاغة النظم العربي: دراسة وتحليل لمسائل علم المعاني**، ط ١، مطبعة جامعة الأزهر–مصر.

عامر، فتحى أحمد، د.ت.، **بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ**، د ط، نشأة المعارف بالاسكندرية–مصر.

عامر، فتحى أحمد، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، **فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم**، د ط، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية–مصر.

عامر، فتحي أحمد، د.ت.، **المعاني الثانويّة في الأسلوب القرآني**، د ط، منشاة المعارف–الإسكندرية، مطبعة أطلس–مصر.

الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، **معاني القرآن**، ط ٣، عالم الكتب–بيروت.

المثنى، أبو عبيدة بن معمر، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، **مجاز القرآن**، تحقيق: أحمد قريد المزيدي، ط ١، دار الكتب العلمية–بيروت.

محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، د.ت.، **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني**، د ط، دار المعارف-مصر.

مخلوف، عبد الرؤوف، د.ت.، **الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن: دراسة تحليلية نقدية**، د ط، دار مكتبة الحياة-بيروت.

ندوة بنت حاج داؤد، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، **التصوير البلاغي في القرآن الكريم بين الإمامين عبد القاهر الجرجاني والزمخشري: دراسة وموازنة**، بحث تكميلي مقدم لنيل الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها (الدراسات الأدبية)، كلية معارف الوحي الإسلامية والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.

ياقوت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، **معجم الأدباء**، ط ٣، دار الفكر، بيروت.